مشكلات الإنسان

﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾

(البقرة ـ الآية 195)

نتجاوب بكتابنا هذا، مع حاجة أصبحت تطرح نفسها بإلحاح لفهم الإطار الذي يحيا فيه الإنسان والذي يتعرض للانتهاك والاستنزاف بقسوة وإرهاق، مما أدى إلى ظهور مشكلات تهدد سلامة الحياة البشرية. وقد تنوعت المشكلات وتشعبت مع تنوع وتشعب النشاطات البشرية ولهذا، فإن كتابنا هذا يدعو إلى تبني خُلُق بيئي يقودنا إلى الاعتراف بأننا ننتمي إلى الأنظمة البيئية، لنا ما لها وعلينا ما عليها، نؤثر فيها وتؤثر فينا.. ولعل في عرض المشكلات البيئية التي سببها الإنسان نفسه، فرصة لإعادة النظر بين الإنسان والبيئة بحيث نتبنى قيماً بيئية قائمة على أساس الفائدة المتبادلة حتى تبقى البيئة موطناً مرحاً وحانياً على الأولاد والأحفاد مستقبلاً.

والتربية البيئية ليست حديثة العهد، فلها أصولها القديمة،

ولكنها اكتسبت أهمية أكبر في الآونة الأخيرة نتيجة لانبثاق الوعي بالمشكلات البيئية الكبرى.. المشكلة السكانية ومشكلة الطاقة ومشكلة الغذاء ومشكلة التلوث ومشكلة استنزاف الموارد.. ولقد ظل مفهوم التربية البيئية وثيق الصلة في تطوره بمفهوم البيئة ذاتها وبالطريقة التي كان ينظر بها إليها، وقد انتقل من نظرة تقتصر بصفة أساسية على تناول البيئة من جوانبها البيولوجية والفيزيائية، إلى مفهوم أوسع مدى يتضمن جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويبرز ما يوجد بين هذه العوامل المختلفة من ترابط.. بيد أن بية كانت دائماً ترتبط بالبيئة على نحو ما، إذ كان الإنسان يعد لمواجهة الحياة في المجتمعات القديمة، وحتى اليوم في قطاعات كبيرة من سكان الريف، من خلال تجارب وثيقة الصلة بالطبيعة، وما برحت النظم التربوية الحديثة تتخذ لمناهجها، إلى حد ما، أهدافاً ومضامين لها علاقة بالبيئة.

مشكلة النمو السكاني

إن استمرار الحياة، بوجود الموت، أهم جزء من مفهوم الحياة، والتكاثر هو الذي يجعل هذا الاستمرار ممكناً وبدأ يجعل مفهوم الحياة متكاملاً ولكن ماذا بعد؟ وكم سيزداد عدد السكان بعد مائة عام مثلاً؟ أو ألف عام؟ أين سيعيش كل الناس، عندها؟ بل كيف سيعيشون؟ وعلينا أن نتذكر أن من نتساءل عنهم قد يكونون أحفادنا أو أخوة لنا في البشرية، لا مجرد أرقام إحصائية جامدة.وإن إطلاق اسم «الانفجار السكاني» على هذا التزايد إنما يدل على مدى الإحساس بخطره الكامن والماثل.[1]

وإذا أحسن البحث العلمي وتطوره بتخفيض نسبة الوفيات في العالم، فقد أسهم في خلقه مشكلة جديدة هي هذا التزايد الهائل في عدد السكان وقد تخطت المجتمعات المتقدمة هذه المشكلة بتخفيض معدل الإنجاب فيها مما مكنها من تحسين مستوى معيشة الناس فيها، جعلها قادرة على الالتفاف إلى الناحية الكيفية من «التكاثر» بمعنى زيادة العناية بهم وصقل مواهبهم وتطوير إمكاناتهم وقدراتهم وهذا أهم عوامل تقدم

هذه الدول ذلك أن استثمار القوى البشرية، في أي مجتمع، استثماراً سليماً جيداً هو خير استثمار لأهم مورد من موارد ذلك المجتمع.[2]

لكن هذا، بالطبع، لا ينطبق على الجميع، فإن خرافة تمتع الولايات المتحدة بمناعة ضد المشكلات السكانية لبقية العالم تتجاهل مسائل الهجرة، الأمراض المعدية، .. والعوامل المشتركة البيئية مثل قشرة الأرض، المحيطات، الغلاف الجوي، والحياة البرية، يرحل اللاجئون والمهاجرون من أوطانهم بسبب الانقلابات السياسية، الإشكالات العرقية، الفاقة والتآكل البيئي - جميع المشكلات التي تتفاقم جراء النمو السكاني السريع - وهي تلعب مما من الآن دوراً مرئياً في السياسات المحلية لكل من فلوريدا، تكساس وكاليفورنيا، كذلك في السياسة الخارجية الأمريكية. إن صحة الأمريكيين ترتبط بصحة البشر خارج حدود الولايات المتحدة. إن الأمراض المعدية لا تحمل جواز سفر. إن النمو السكاني السريع للدول النامية والذي يؤدي إلى منافسة عنيفة في الأجور قد يلعب حتى، بعض الدور في حركة الوظائف والشواغر إلى خارج الولايات المتحدة، مع أن مدى هذا الدور ما زال

مثاراً للجدل بسبب عدم إخضاعه لقياس دقيق حتى الآن. قد يحسن الأمريكيون صنعاً بإدراك أهمية خفض معدل النمو السكاني للدول وعلاقتها بتعزز مصلحتهم العامة.(هل يكفي القول أن 200 مليون إنسان قد قتلوا في حروب هذا القرن، وربما قتلت الحربان العالميتان الأولى والثانية 90 مليون إنسان.

والحل.. أن تكون الطاقة المتوفرة أكثر من الحاجة إليها.. كيف؟ أن يكون العرض أكثر من الطلب. ولكي يكون الإنتاج وفيراً، يسير على هيئة هرمية، فعلى مخلوقات القاعدة الهرمية (الطاقة والإنتاج) أن تتكاثر بسرعة كبيرة، وعلى التي تحتل القمة (الناس) أن تحد من نسلها حتى يتوازن الهدم مع البناء.. أو الطاقة مع المادة الحية.

وإذا كانت المادة هي جسد هذا الكون المنظور، فإن الطاقة هي روحه الخفية وصورته المتحررة وقوته الدافعة.

مشكلة الغذاء

﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾
(إبراهيم ـ الآية 28)

كما تقوم الحياة على عمليات بناء تتبعها عمليات هدم، كذلك سارت المخلوقات على أساس أن هناك آكل ومأكول، وكل من أكل سوف يؤكل بعد حين، ومن وراء ذلك السعي الدائم للمخلوق للحصول على مصدر طاقة يقيم بها أود حياته. ومنذ عام 1798 عندما أعلن توماس مالتوس أن مصادر الطعام في العالم سوف لا تفي بحاجة أهل الأرض، ظل المتشائمون يقولون أن الجنس البشري إنما يتناسل من أجل كارثة، وتوقع أن يصبح سكان الأرض عام 2000 ستة آلاف مليون نسمة.[3]

ومع أن هناك أدلة في المملكة الحيوانية تشير إلى أن معدل الخصب في التناسب يقل تبعاً لنقص الغذاء المتوفر، لكن الإنسان في معظم بقاع الأرض، نتيجة استعمال عقله، ونتيجة للثورتين الزراعية والصناعية، تمكن من تخطي العوامل التي

تحد من تكاثره، وهنا بدأ الإخلال بالتوازن البيئي وكان أول مظهر من مظاهر هذا الخلل: نقص الغذاء، وزاد في حدة المشكلة أن إنتاج الغذاء بكل أشكاله يتأثر بعوامل مناخية أهمها معدل سقوط المطر. وهذه العوامل عرضة للتغير في فترات.

يقول العلماء الذين يعتقدون بوجود مشكلة غذائية عالمية وصلت فعلاً حد الأزمة وتتجه سريعاً نحو الكارثة

أو التحدي الخطر لوجود الإنسان، أنهم ينطلقون من عدة منطلقات:

أولاً: أن الأرض الصالحة للزراعة، أصغر مساحة من تلك غير الصالحة وأن هذه المسافة الصالحة آخذة في الصغر بفعل اغتصابها لبناء المدن وشق الطرق، كما تفقد الزراعة مساحة من الأرض نتيجة تحولها إلى أراض غير منتجة بسبب إهمال الإنسان وإساءة استعمالها والكوارث والتحول المناخي.. وهنا لا بد من القول بأن الغذاء الإنساني حتى يكون غذاء صحياً بالمعنى الصحيح، يجب أن يحتوي على عناصر محددة بنسب معينة ولا يجوز إهمال أي عنصر منها.

ثانياً: الأرض الصالحة، باتت مسمومة وخطرة، أو ماتت بفعل التلوث،[4] فالغذاء الذي لا يحتوي على البروتينات

والكروهيدرات أو الدهون والفيتامينات بأنواعها المختلفة أو الأملاح المعدنية بعناصرها المتعددة لا يكون غذاء صحياً وبالتالي، يكون مصدر إشكالات صحية عدة.[5] فما الذي يحفظ هذه الأغذية سليمة؟ شاملة العناصر؟ ليس فيها محاكاة لوجبة الغذاء المستوردة؟[6] سوى بيئة نقية نظيفة لا تشوبها أشعة مدمرة ولا تلوثها تربة مسمومة، ولا ينقصها الماء الضروري الذي لا يمكن أن تستمر الحياة بدونه، ليس لأن طاليس اعتبره مصدر كل شيء عداه، ولكن لأننا نوافق السومريين والبابليين في قولهم «أن الماء أثمن هدية من الله للإنسان»[7] فالغذاء يمكن أن يؤدي دور الأداة الناقلة لأنواع مختلفة من الكائنات العضوية المسببة للمرض إلى الإنسان:الكائنات الفيروسية، الفطرية، الدودية، البكتيرية وتشمل أهم الأمراض المنقولة بهذه الطريقة: التيفود، الالتهاب الكبدي، والتسمم الناتج عن الغذاء الفاسد ويشمل اللبن ومنتجات الألبان التي يمكن أن تتلوث إذا لم تبستر، بصورة تهدد صحة الإنسان.

مشكلة التخلف

اختلف مفهوم التقدم والتخلف في عصرنا عنه في الماضي فبعد أن كان يرتبط بالغنى والفقر، ثبت اليوم أن كثيراً من الدول الغنية بمواردها وثرواتها جداً متخلفة جداً، وبالعكس، فاليابان وبريطانيا وسويسرا بلدان فقيرة بمواردها الطبيعية، ولذلك ومنذ أن بدأت الحضارة العلمية الحديثة تسيطر على حياة الناس، ظهرت مشكلة انقسام الشعوب إلى متقدمة ومتخلفة، وصاحَبَها سيطرة الأولى على الثانية، حيث مع ازدياد التقدم العلمي والتكنولوجي بشكل متسارع عند الدول المتقدمة يجعل الهوة تزيد وتعمق إلى درجة أن يكون هناك نوعان من السكان في العالم، على أرض واحدة، في زمن واحد، ولكن غير متعاصرين، وفشلت كل محاولات بعض الدول الغنية وغير المتقدمة باستيراد الحضارة العلمية، وذلك أن التقدم لا يأتي من الخارج بل ينبع من داخل الفرد كقوة دافعة مستمرة ومتزايدة أولاً... ولأن العلم غريب عن

الطبيعة الإنسانية، والإنسان لا يولد عالماً، ولا بد حتى يصبح كذلك من تدريبه منذ البداية على أساليب الفكر العلمي والتطبيق التكنولوجي. وإذا لم تعِ الدول المتخلفة طبيعة الحضارة العلمية ودورها في ميزان القوى، تظل جهودها فردية لا تؤدي إلى شيء وبالتالي تزداد تأخراً لا تقدماً.

واستمر النزاع والصراع بين الأمم والشعوب، واستمرت النتائج تتأرجح إلى أن رجحت كفة الغرب عقب الثورة الصناعية وبدأت عهود الاستعمار بأشكاله المتعددة: المباشر ثم الاستعمار الاقتصادي إلى أن طلع علينا بوجهه الجديد: الاستعمار العلمي، الذي لا مجال للثورة عليه طالما كان المجتمع متخلفاً، بل كلما زاد تخلف هذا المجتمع زاد تأثير هذا الاستعمار عليه نظراً لحاجة الأول إليه..[8] لكننا عن جهل أو تجاهل نتهرب من مواجهة الحقيقة ونلجأ للتبرير، فنختلق كبش فداء نحمّله أسباب فشلنا أو هزيمتنا والأسوء أننا نصدق تبريراتنا،

ولذلك لم نعالج العلة وبقينا لا نخرج من فشل إلا لنقع في كارثة، ولنا في اليابان أمثولة حيّة.

وإذا كانت الآلة هي العمود الفقري لحضارة اليوم، فلا بد لنا من الإشارة بأن تصميمها يسبب مشكلات ضخمة في مجال تلوث الجو والأرض والبحر بلغت حداً من الخطورة أن آذت البيئة إلى درجة باتت تشكل خطراً على حياة الإنسان ووجوده.

ولا ننسى أن التقدم يشمل بالإضافة للقوة المادية، القوة الاقتصادية والعزة والإحساس بان الدولة ملاذ وموئل وذات إمكانات للعيش كريم.[9] ولقد زعم الاقتصاد منذ زمن بعيد، أنه شيء والأخلاق شيء آخر، معتبراً نفسه علما شبه معصوم، وها هو قد ضبط بجرم الفشل المشهود، ولم يعرف العالم الثالث بعد عقود من الاستقلالات، سوى تقدم مطرد في التفاوت واللامساواة ودوام لسوء التغذية والأمية.

يقول رينيه ديمون:

.. لقد نوهت في كتابي «أسباب الغضب» (المشترك مع ش. باكيه) بضرورة خوض معركة مثلثة الأبعاد:

في سبيل علم منزوع السلاح، بلا قنابل ذرية.

في سبيل العالم الثالث الغارق بالديون والمخنوق من قبلنا.

في سبيل البيئة، وحماية جميع أشكال الحياة وبالتالي مستقبل البشرية.

تلك أهداف ثلاثة متلازمة، - يتابع رينيه ديمون - لا يغني واحدها عن الآخر مرسومة بدقة، وإن كانت تشكو من شيء، فليس من قلة الأنصار، بل من انعدام التضافر فيما بينهم. فالثالثيون والأيكولوجيون والمسالمون لا يتوصلون إلى توحيد جهودهم، على الرغم من التلاقي في وجهات نظرهم، علماً بأن هذا التضافر، الذي من شأنه أن يكسبهم قوة سياسية قادرة على إسماع صوتها، قد أضحى شرطاً لبقائنا. وإن جوانب التقدم في اقتصادنا قد تخطتها من اليوم فصاعداً أضراره وأتلافه: ولئن كانت

المحصلة الإجمالية لا تزال تعود بالربح على أصحاب الامتيازات، فإنها تحكم بالإفلاس على المحرومين وتهدد مستقبل الإنسان وأشكال الحياة الأخرى على الأرض.. ولسوف يشق على أحفادنا في القرن القادم، أن يفهموا موقفنا الأناني بل، وهذا الأسوء عجزنا السيطرة على مشكلات المستقبل..»[10].